المثلية الجنسية وخطاب المساواة: في النقد الجذري لزواج المثليين

بدور حسن*

مقدمة

لطالما أُخذ على خطاب التحرر الجنسي والتعددية الجندرية إغراقه في النخبوية واقتصار تداوله على قطاعاتٍ محدودة من المجتمع الفلسطيني، فضلًا عن اعتبار الكثيرين هذا الخطاب أحد تجلّيات الهُويّات الفرعية التي تشتّت بوصلة نضال التحرر الوطني، وتشكّل ترفًا في مجتمعٍ يسلبه الاستعمار حقوقه الأساسية ويقوّض إمكانياته في خلق نضال شعبي جامع.

لن يخوض هذا المقال في نقاش الهُويّات الفرعية وتحديد الأولويات على أهميته، إلا أنه يمكننا القول إن نقاش الحريات الجنسية خرج من دائرته الضيّقة في الآونة الأخيرة بفضل طرف غير متوقّع قام بإثارته؛ إذ لا شكّ أن تعليقات نائب رئيس الحركة الإسلامية - الشق الشمالي الشيخ كمال خطيب، بكل ما تحمله من تعدٍّ على الحريات الخاصة والفردية وكل ما تنضح به من كراهية وتحريض وعنف لفظي وأفكار مسبقة، ساهمت في خلق حالة لم نشهدها من قبل، أخرجت النقاش حول المثلية من الفقاعة النخبوية التي يحتكرها متحدثو اللغة الإنكليزية منا، ونقلت الموضوع من التابوهات إلى رأي عام يتداوله الجميع. ومجرد حصول هذا النقاش يدلّ على تقدم -وإن كان بطيئًا.

جاء القرار بتشريع زواج المثليين في الولايات المتحدة ليضيف إلى هذا الزخم في الحديث عن المثلية، لكن أبرز ما يميّز هذا النقاش هو تركيزه المفرط على مسألة الزواج واختزاله القضية المثلية فيها، رغم وجود أصواتٍ مناهضة لهذا الاختزال حتى في الولايات المتحدة نفسها."أطلقوا سراح المتحوّلين والمثليين المعتقَلين في السجون الأميركية بتهمة الهجرة غير الشرعية" -هذه كانت الرسالة التي أرادت الناشطة المتحوِّلة والمهاجرة "غير الشرعية" جينيسيت غوتييرث إيصالها للرئيس الأميركي أوباما حين قامت بمقاطعة خطابه في الاستقبال السنوي الذي ينظِّمه البيت الأبيض احتفاءً بالمثليين، وبالتقدم الذي أحرزته الولايات المتحدة في مجال الدفاع عن حقوق "مجتمع" المثليين والمثليّات والمتحولين وثنائيي الميول الجنسية. كانت جينسيت تدرك الثمن الباهظ الذي يمكن لصرختها هناك أن تتمخّض عنه، وأنها يمكن أن تهدد بقاءها في الولايات المتحدة كونها مهاجرة غير قانونية، ولكنها كانت تتوقّع تضامنًا ممن يُفترض أن يكونوا شركاءها في النضال من المثليين والمثليات البيض. ولكن ما حصل كان أنْ طردها الحرس من المبنى لِـ "تجرُّئها" على مقاطعة الرئيس، بينما لم يبدِ معظم الجالسين في القاعة أي تضامن مع "شقيقتهم" المحتجّة. لم تستغرق صرخة جينيست إلا ثوانيَ

معدودات، لكنها تحدّثت بلسان حال الآلاف من المثليين والمتحولين المهاجرين، الذين يقبع بعضهم في السجون ويتعرضون للتحرش والاعتداء الجنسي، فيما يعاني بعضهم الآخر من شتى أنواع الاضطهاد والتمييز لكونهم مهاجرين ومثليين أو متحولين، أي لانتمائهم لعدة شرائح مضطهدة. ورغم محاولات الكثيرين إسكات جينيست، فضحت كلماتها زيف الحديث عن مجتمع مثليّ متجانس، مثبتة مجدَّدًا أن ما يسمّى بالمجتمع المثلي في الولايات المتحدة ما هو إلا بوتقة إضافية تعيد إنتاج الظلم والقهر والتمييز القائم في المجتمع الأوسع، وبينما يحظى بعض أفراده بالامتيازات النابعة من طبقتهم الاجتماعية ولون بشرتهم وتماهيهم مع النخبة الحاكمة، فإنها تفرض الإقصاء على كل المختلفين والرافضين تكريس الهيمنة البيضاء والبرجوازية. وكان هذا التناقض في الأولويات وأهداف النضال جليًّا في ردة الفعل التي أسفرت عنها مصادقة المحكمة العليا على زواج المثليين.

بعد يومين فقط من احتفال الفخر بالمثلية الذي نظمه البيت الأبيض، قررت المحكمة العليا الأميركية، بخمسة أصواتٍ مقابل أربعة، تشريع زواج المثليين، القرار التاريخي الذي وضعه البعض ضمن قرارات المحكمة البارزة لإلغاء التمييز العنصري إبان حركة الحقوق المدنية. أطلق القرار، الذي صاغه القاضي أنتوني كندي بلغة ليبرالية مبهرة، زوبعة من الردود المتناقضة في الولايات المتحدة وفي العالم، وأثار حفيظة المحافظين الأميركيين، فمنهم من عارضه لأنه اعتبره غير دستوري ويمثّل تدخلًا صارخًا للمحكمة وقضاتها في مجال التشريع والشؤون المحلية للولايات ويناقض مبدأ الديمقراطية التمثيلية الذي ينص على أن حق اتخاذ القرار في مثل هذه المسائل في الولايات المتحدة هو من صلاحيّات النواب المنتخبين فقط؛ ومنهم من عارضه لأنهم محافظون دينيًّا واجتماعيًّا ويعتبرون أن الزواج هو عقد لا يمكن أن يحصل إلا بين ذكرٍ وأنثى، وأن تشريعه للمثليين يناقض الفطرة الإنسانية ويخالف الحرية الدينية والأخلاق الاجتماعية السائدة، هذه الرّدود الّتي تحاول أن تغطّي النزعة الواضحة تجاه رُهاب المثليّة والإقصاء بعبارات دستوريّة وشعارات قيميّة.

لكن مقابل معارضة القرار، شهدت ميادين التواصل الاجتماعي في العالم، والحلقات الليبرالية والمثليّة في الولايات المتحدة، احتفالاتٍ لم نشهد نظيرًا لها منذ زمنٍ بعيد. اجتاحت أعلام قوس قزح صفحات المستخدمين وبناء البيت الأبيض والساحات والشوارع والجدران، وهرع العشاق المثليون لتسجيل زواجهم على نحوٍ رسميّ، وملأت صور كعك الزفاف صفحات مواقع التواصل الاجتماعية، وبين دموع الفرح بهذا القرار التاريخي وبتحقيق المساواة والمسيرات الافتراضية التي تَوّجها روّاد وسائل التواصل الاجتماعي بعبارة "انتصر الحب"، بقي هنالك طرف آخر لم تُسمِعنا وسائل الإعلام صوته، لكونه غير مريح بالنسبة للكثير من الليبراليين المؤيدين لزواج المثليين.

سنحاول في السطور التالية عرض أبرز النقاط التي يعتمد عليها أصحاب الصوت غير المسموع، ذوو النقد التحرري والجذري الذين يوجِّهون نقدهم، بصورة خاصّة، للمؤيّدين للزواج المثليّ ولاهتمامهم في السنوات الأخيرة بهذه القضية وتجاهل قضايا أخرى تهمّ المثليين من فئات مستضعفة. كذلك سنحاول فهم كيفية تأثير هذا الخطاب الليبرالي السائد علينا، في مناقشتنا لزواج المثليين واستشراف ما إذا كانت هنالك إمكانية حقيقية لخلق خطابنا الكويري المستقل، في ظل ما نشهده من حديث متزايد عن المثلية الجنسية في الفضاء العام.

الزواج: مساواة أم احتواء؟

عبّرت الباحثة الأميركية ليسا دغان عن امتعاضها وصدمتها من تركيز الحركة المثليّة في الولايات المتحدة على النضال من أجل زواج المثليين، معتبرة أن منظومة الزواج بحد ذاتها أضيق من أن تستوعب الأشكال المختلفة وغير التقليدية لعلاقاتنا الحميمة وتكافلنا الاجتماعي ومفهومنا للحب والشراكة. تضيف دغان أن تكريس الاهتمام على تشريع زواج المثليين أسهم في التضحية بأشكال مختلفة للعلاقات الاجتماعية وتهميشها وجعلها ضربًا من الشذوذ. حين نطرح على أنفسنا السؤال "لماذا تبدي الدول والمحاكم وبعض البنى التقليدية في الغرب استعدادا أكبر لتقبل زواج المثليين؟"، قد يكون الجواب السهل الذي يخطر في بالنا هو أن هذا التحول هو نتيجة تراكم نضال طويل خاضته الحركات المثلية ودفعت ثمنه دمًا وتشهيرًا. لكن الجواب أعقد من ذلك: لا يمكننا إنكار النضال الشجاع الذي خاضته الحركات المثلية من أجل الحصول على حقها بالمساواة في مجالات عدة ومنها الزواج وإن اختلفنا مع الهدف النهائي لهذه النضالات، إلّا أن الدافع الرئيسيّ وراء ذلك هو الرغبة في احتواء هذه الفئة المختلفة وتدجينها وجعلها جزءًا من الاتّجاه السائد، بالإضافة إلى المحافَظة على الزواج بوصفه الشكل الأساسي والحصْري لتنظيم حياتنا الجنسية والعاطفية، والإبقاء على بنْية العائلة النووية وتجنُّب ضعضعتها. زواج المثليين، مع كل ما قد يحمله من "ثورية" وَ "تغيير"، هو جزء من المنظومات المهيمنة على الحب والجنس، وبتشريعه تسهم الدول وأذرعها القضائية في حشر المزيد من الناس في هذه المنظومة وانصياعهم لها. ليست كل العلاقات الزوجية هرميةً وقمعيةً بالضرورة، ولكن الحديث هنا لا يدور حول علاقات فردية أو حالات خاصة، بل حول منظومة كاملة ترتكز إلى شبكة من القوانين التي تُحتكر بموجبها الميزات الاجتماعية والاقتصادية على من يدخلون هذه المنظومة. ولكن ماذا عن غير الراغبين في التقيّد بهذه المنظومة مفضّلين إدارة علاقاتهم بطرق أكثر تحررية وأقل تقليدية؟ كلما دخل عدد أكبر من الناس في منظومة الزواج، خسر المعارضون لها من حقوقهم، واعتُبِروا مجرد متمرّدين خارجين عن الأخلاق الاجتماعية، وهكذا -وربّما كان ذلك دون قصد- يصبح المدافعون عن الزواج المثلي مدافعين كذلك عن الأخلاق الاجتماعية السائدة ومنظومة القيم التقليدية التي كان ينبغي لهم معارضتها لأنها تجاهلتهم. فلو أخذنا محاربة الإجهاض مثالًا، أليس من المفترض أن يدافع أنصار زواج المثليين عن حق المرأة في التحكم بجسدها؟ نفسّر ذلك بأنّ زواج المثليين لا يضرّ المنظومة التقليدية الاجتماعية مقارنة بالإجهاض الذي يُعتبر وسيلة لخلخلة المنظومة وتحدّيها. زواج المثليين إعادة إنتاج للمنظومة بعكس الإجهاض الذي يشكّل تهديدًا لقدسية العائلة النووية. إنّها عمليّة احتواء باسم المساواة لترسيخ سلطة الزواج يتحوّل فيها النضال التحرّريّ إلى نضال من أجل الانضمام إلى الطبقة القاهرة والتمتّع بجميع مزاياها.

هل الزواج أولوية؟

يصبّ شكل آخر من النقد التحرري لزواج المثليين في خانة الأولويات: في الوقت الذي يقبع فيه المهاجرون المثليون والمتحولون في السجون، ويتعرض فيه المثليون الفقراء والملوّنون لأشكال عديدة من القمع المؤسَس والممنهَج والذي تتداخل فيه العناصر الطبقية والعنصرية والجندرية، أليس من الأجدى بالحركة المثلية التركيز على محاربة كل ذلك، بدلًا من اختزال جهدها بنضال من أجل قضية تخص فئة معينة من المثليين (وهم البرجوازيون عمومًا)؟ كيف يمكن تجاهل المجتمع المثلي للظلم الواقع على بعض فئاته رغبة في المحافظة على ارتقائه الطبقي والاجتماعي؟ ولماذا توانى

معظم المحتفلين بتشريع زواج المثليين عن التضامن مع جينيست غوتييرث حين دافعت عن المهاجرين المثليين؟ لماذا يصمت الكثير منهم عن قضية الناشطة المتحولة المعتقلة تشيلسي مانِنغ ؟ لماذا تُهمّش الحركة المثلية العالمية أصوات المثليين والمتحولين ممن يواجهون خطر الإخلاء من بيوتهم أو خطر الترحيل أو خطر القتل بسبب ميولهم الجنسية وهويتهم الجندرية؟ أليست هذه أمورًا أكثر مصيرية من الزواج؟

المفارقة في احتفالنا

يمكن تلخيص ازدواجية المعايير التي تنم عنها ردود الفعل العربية على تشريع الزواج في الولايات المتحدة بتغريدة واحدة كتبتها الصحفية المصرية منى عراقي عقب قرار المحكمة: "الحب انتصر!" -هكذا كتبت الصحفية ذاتها التي قادت حملة شرسة على المثليين في مصر حين رافقت الشرطة المصرية في اقتحامها لأحد البيوت التي يجتمع فيها المثليون. لم تعتذر عراقي عما فعلته وعن تحريضها ضد المثليين والإساءة لهم، بل أعربت عن رضاها التام وفخرها بما فعلت. كيف يستوي الأمران بالنسبة لمنى العراقي؟ كيف يمكن أن تهلل لزواج المثليين في الولايات المتحدة، وتحرّض ضد المثليين وتقود حملات تشهير تجاههم في بلادنا؟ عراقي ليست الوحيدة التي فعلت ذلك؛ فالكثيرون من المعلّقين الفلسطينيين والعرب على الموضوع، الذين يزدرون مجرد ذكر المثليين في بلادهم، زيّنوا صفحاتهم بأعلام قوس قزح "تضامنًا" مع المثليين الأميركيين.

لا يمكن النظر للكثير ممن احتفلوا بتشريع زواج المثليين في أميركا على أنهم شركاء جدد في النضال المثليّ المحليّ؛ فمن يعرب عن اشمئزازه لمجرد رؤية مَن يعبّر عن هويته الجنسية بشكل مختلف، لا يملك أي مصداقية حين يحتفي بتشريع زواج المثليين في ما وراء البحار.

ويثير هذا التناقض إحدى أبرز الإشكاليات التي تواجهنا عندما نخوض النقاش حول المثلية في مجتمعنا: كيف ندمج بين مواجهتنا لرُهاب المثلية ورفضنا لتأطير الجَنسانية غير المعيارية ونسخ الأدوات التي تستخدمها الحركة الكويرية العالمية؟ كيف نؤكد على معارضتنا لحملات التشهير والتحريض ضد المثليين والمثليات دون أن نتبنى نظرية أن "الزواج هو الحل" وأنه رديف الحب، ودون اختزال قضية المثليين في الجنس؟ كيف نبني خطابًا كويريًّا عربيًّا مستقلًّا مع احترام حق الفرد في التعبير عن هُويّته الجنسية بالشكل الذي يرتئيه، وكيف ندرك أن الحل ليس برسم قوس قزح على جدران مخيم، مثلاً، والوقوع في فخ توجيه خطابنا على نحوٍ مستمرّ للغرب، بدلًا من استغلال الهامش الأوسع من الحرية للحديث عن هذه المواضيع باللغة العربية حتى لو لم يعجب ما نقوله الكثيرين؟

يتحتم علينا، نحن المهتمين بهذا الشأن، مَهما اختلفت طرق تعبيرنا عن جَنسانيتنا، محاولة تفكيك هذه التناقضات أو مناقشتها ضمن مساحات تتيح المجال لأطياف متنوعة من المجتمع أن تشارك فيها، مع معرفتنا بأن طبيعة هذا النقاش هي نخبوية أصلًا، وبالتالي يتعين بذل جهود لإخراجها من هذه الدائرة الضيّقة.

* **بدور حسن، طالبة جامعية ومدوِّنة فلسطينية مقيمة في القدس.**